# من الجاهلية إلى الإسلام

أبو الحسن علي الحسني الندوي

سلسلة مطبوعات مكتبة الاسلام لكهنؤ

# من الجاهلية الى الاسلام

ابو الحسن علي الحسني الندوي

الطبعة الاولى ———— ١٣٦٨ﻫ



طبعت فى هندوستان پريس - رامپور ( الهند )



و بعد فهذه رسالة نقدمها الى القراء و هى فصل من كتابنا الكبير «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟» و الرسالة كأخواتها من مقالات و محاضرات ترمى الى تغذية الفكر الحديث فى الأقطار العربية التى هى معقل الانسانية اليوم و مناط آمال المهتمين بشؤون العالم بالأدب الاسلامى الحى الدسم الذى ينفخ فى الشباب الروح الاسلامى ويعده لقيادة العالم الحائر التائه و تسلم دفة سفينة الحياة الضائعة بين الملاحين العابثين و الركاب النائمين، و ذلك لا يكون الا باتباع منهاج الأنبياء فى الاصلاح و الجهاد اذاً لا بد من معرفة طبيعة هذا الاصلاح و ما يمتاز به عن غيره من حركات الانقلاب و الثورات و من مشاريع التعليم و التربية و اذاً لا غنى عن حديث اعظم اصلاح و جهاد سجله التاريخ البشرى، الاصلاح الذى قام به سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم بأمر من الله وعلى أساس من الوحى الالهى و الكتاب السماوى و هو الطريق الوحيد لنهوض العالم من عثاره.

ان الانتقال من الجاهلية الى الاسلام اعظم انتقال و اعجبه فى تاريخ التحولات والحوادث، و كانت الشقة التى قطعها المسلمون فى القرن السادس المسيحى فى تحولهم من الوثنية بما وسع معانى الكلمة الى دين التوحيد اطول شقة قطعها البشر فى اقصر مدة و اقرب وقت عرفه التاريخ فالحديث عن هذا السفر العجيب حديث طريف و حديث شائق و حديث يهم العالم كله معرفته فى العصر المتحير المرتبك الذى قد تحرك ركبه و سار و لم يعرف بعد غايته التى يقصدها و المكان الذى ينتهى اليه .

والى القراء هذا الحديث، و سيتبعه مقالات و رسائل تكون المكتبة الاسلامية الصحيحة للناشئة الاسلامية و الشباب الناهض .

على الحسنى

رامپور ١٤-١-٦١ء



# من الجاهلية الى الاسلام[1]

بعث محمد بن عبد الله، صلى الله عليه و سلم، و العالم بناء أصيب زلزال شديد هزه هزا عنيفاً، فاذا كل شئ فيه فى غير محله، فمن اثاثه و متاعه ما تكسر ومنه ما التوى و انعطف ومنه ما فارق محله اللائق به و شغل مكانا آخر ومنه ما تكدس و تكوم، نظر الى العالم بعين الانبياء فرأى انسانا قد هانت عليه انسانيته، فرآه يسجد للحجر و الشجر و النهر و كل ما لا يملك لنفسه النفع و الضرر، رأى انسانا معكوساً قد فسدت عقليته فلم تعد تسيغ البديهيات و تعقل الجليات، و فسد نظام فكره فاذا النظرى عنده بديهى و بالعكس، يستريب فى موضع القطع و يؤمن فى موضع الشك، وفسد ذوقه فصار يستحلى المر و يستطيب الخبيث و يستمرئ الوخيم و بطل حسه فأصبح لا يبغض العدو الظالم و لا يحب الصديق

---

١–فصل من كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ »

السامح. ورأى مجتمعا هو الصورة المصغرة للعالم كل شئ فيه فى غير شكله اوفى غير محله، قد اصبح فيه الذئب راعياً والخصم الجائر قاضياً واصبح المجرم فيه سعيداً حظيا والصالح محروماً شقيا لاأنكر فى هذا المجتمع من المعروف ولااعرف من المنكر، ورأى عادات فاسدة تستعجل فناء البشرية وتسوقها الى هوة الهلاك. رأى معاقرة الخمر الى حد الإدمان و لإثخان، والخلاعة والفجور الى حد الاستهتار. وتعاطى الربا الى حد الاغتصاب واستلاب الاموال، و رأى الطمع وشهوة المال الى حد الجشع و النهامة، و رأى القسوة و الظلم الى حد الوأد وقتل الاولاد. رأى ملوكا اتخذوا اموال الله دولا و عباد الله خولا، و رأى احباراً ورهبانا اصبحوا ارباباً من دون الله يأكلون اموال الناس بالباطل و يصدون عن سبيل الله.

رأى المواهب البشرية ضائعة أو زائغة لم ينتفع بها ولم توجه التوجيه الصحيح فعادت و بالاعلى أصحابها و على الانسانية فقد تحولت الشجاعة فتكا و همجية. والجود تبذيراً وإسرافا و الأنفة حمية جاهلية والذكاء شطارة وخديعة و العقل وسيلة لابتكار الجنايات و لإبداع فى ارضاء الشهوات.

رأى افراد البشر والهيئات البشرية كخامات لم تحظ بصانع حاذق ينتفع بها فى هيكل الحضارة، وكالواح الخشب لم تسعد بنجار يركب منها سفينة تشق بحر الحياة

رأى الأمم قطعانا من الغنم ليس لها راع والسياسة كجمل هائج حبله على غاربه والسلطان كسيف فى يد سكران يجرح به نفسه ويجرح به اولاده وإخوانه.

ان كل ناحية من نواحى هذه الحياة الفاسدة تسترعى اهتمام المصلح وتشغل باله، فلو كان رجل من عامة رجال الإصلاح لتوفرعلى إصلاح ناحية من نواحيها وظل طول عمره يعالج عيبا من عيوب المجتمع ويعانيه،

ولكن نفسية الانسان معقدة التركيب دقيقة النسج كثيرة المنافذ والأبواب خفية التخلص والتنصل وانها اذا زاغت واعوجت لا يؤثر فيها اصلاح عيب من عيوبها وتغيير عادة من عاداتها حتى يتغير اتجاهها من الشر الى الخير ومن الفساد الى الصلاح وتقتلع جرثومة الفساد من النفس البشرية التى قد تنبت بفساد المجتمع واختلال التربية كما تنبت الخشائش الشيطانية فى أرض كريمة، وتحسم مادة الشر ويغرز فيها حب الخير والفضيلة ومخافة الله عزوجل.

وكل داء من أدواء المجتمع الانساني وكل عيب من عيوب الجيل الحاضر يتطلب اصلاحه حياة كاملة ويستغرق عمر انسان بطوله وقد يستغرق اعمار طائفة من المصلحين ولايزول، فاذا ذهب احد يطارد الخمر فى بلاد قد نشأت على حياة الترف والبذخ ودانت باللهو واللذة اعياه امرها وحبطت جهوده لأن شرب الخمر ليس الا نتيجة نفسية لعشق اللذة حتى فى السم وتبتغى النشوة حتى فى الاثم فلا تهجره بمجرد الدعاية والنشر والكتب والخطب وبيان مضاره الطبية ومفاسده الخلقية وبسن القوانين الشديدة والعقوبات الصارمة[١].

---

١ — منعت حكومة امريكا الخمر وطاردتها فى بلادها واستعملت جميع وسائل المدنية الحاضرة كالمجلات والجرائد والمحاضرات والصور والسينما لتهجين شربها وبيان مضارها ومفاسدها ويقدر ان ما انفقت الدولة فى الدعاية ضد الخمر يزيد على ٦٠ مليون دولار وان ما نشرته من الكتب والنشرات يشتمل على ١٠ بليون صفحة وما تحملته فى سبيل تنفيذ قانون التحريم فى مدة اربعة عشر عاماً لايقل عن ٢٥٠ مليون جنيه وقد اعدم فيها ٣٠٠ نفس و سجن ٥٣٢٣٣٥ نفس و بلغت الغرامات الى ١٦ مليون جنيه و صودرت من الاملاك ما يبلغ ٤٠٠ مليون واربعة ملايين جنيه ولكن كل ذلك لم يزد الامة الامريكية الا غراما بالخمر و عنادا فى تعاطيها حتى اضطرت الحكومة سنة ١٩٣٣م الى سحب هذا القانون واباحة الخمر فى مملكتها اباحة مطلقة —

(من كتاب «تنقيحات» للسيد ابى الاعلى المودودى)

لاتهجره الابتغير نفسى عميق و اذا أرغمت على تركه بغيرهذا التغير تسللت الى غيره من انواع الجريمة او استباحته بتغير الاسماء والصور.

وكان مجال العمل فى بلاد العرب فسيحاً اذا كان الرسول صلى الله عليه و سلم رجلا اقليمياً وسار فى قومه سيرة القادة السياسيين والزعماء الوطنيين، كان له ان يعقد للامة العربية لواءاً ينضم ليه قريش والقبائل العربية و يكون امارة عربية قوية موحدة يكون رئيسها. ولاشك ان اباجهل بن هشام وعتبة بن ربيعة و غيرهما كانوا فى مقدمة من ينضم الى هذا اللواء القومى و يقاتلون تحته و يقلدونه الزعامة. أما كانوا يشهدون بصدقه وأمانته؟ اما حكموه فى اكبر حادث من حوادث حياتهم المكية و منحوه اكبر شرف اذ حكوه فى وضع الحجر الاسود فى مكانه من البيت؟ اما قالوا له على لسان عتبة، وهم ماعرفوا الاغراء السياسى، «ان كنت انما بك الرياسة عقدنا ألوينتا لك فكنت رأساً مانقيت[1]» و ذا صار له ذلك كان يمكنه ن يرمى الدولة الفارسية بفرسان العرب و شجعانهم و ينتصر

---

[1]-البداية والنهاية لابن كثير الدمشقى: ص ٦٢ ج ٣

للعروبة المهضومة و ينتصر من العجم الظالمين، ويغرز علم الفتح العربي والمجد القومي على هضاب الروم و فارس، واذا لم يكن من حكمة السياسة أن يناجز احدى الامبراطوريتين فى ذلك الحين فكان يمكنه ان يغير على اليمن او الحبشة او جارة اخرى و يضمها الى الإمارة العربية الوليدة.

وكانت فى الحياة العربية نواح اجتماعية و اقتصادية كثيرة تحتاج الى حنكة سياسى و كفاية ادارى و عزيمة عصامى و ابتكار عبقرى، فلو قيض لها رجل من هولاء الرجال لكان للعرب شان كبير و تاريخ جديد،

ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يبعث لينسخ باطلا بباطل و يبدل عدوانا بعدوان و يحرم شيأ فى مكان ويحله فى مكان آخر، و يبدل أثرة أمة بأثرة امة اخرى، لم يبعث زعيماً وطنياً او قائداً سياسيا يجر النار الى قرصه و يصغى الاناء الى شقه، ويخرج الناس من حكم الفرس و الرومان الى حكم عدنان وقحطان، إنما أرسل الى الناس كافة بشيراً و نذيرا، وداعيا الى الله باذنه و سراجا منيرا، انما أرسل ليخرج عباد الله جميعاً من عبادة العباد الى عبادة الله وحده، ويخرج الناس جميعاً من ضيق الدنيا الى سعة الدنيا و الآخرة، ومن جور الاديان

الى عدل الاسلام، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والأغلال التي كانت عليهم.

فلم يكن خطابه لأمة دون أمة و وطن دون وطن ولكن كان خطابه للنفس البشرية و للضمير الانساني، وكانت أمته العربية لانحطاطها و بؤسها احق من يبدأ به مهمته الاصلاحية وجهاده العظيم، وكانت أم القرى و الجزيرة العربية لموقعها الجغرافي و استقلالها السياسي خير مركز لرسالته وكانت الامة العربية لخصائصها النفسية ومزاياها الأدبية خير جارحة لدعوته و خير داعية لرسالته

ولم يكن صلى الله عليه و سلم من عامة المصلحين لذين يأتون البيوت من ظهورها او يتسللون فيها من نوافذها، و يكافحون بعض الادواء الاجتماعية والعيوب الخلقية فحسب فمنهم من يوفق لازالة بعضها ،وقتا في بعض نواحي البلاد و منهم من يموت ولم ينجح في مهمته ا

---

ا— ان غاندى الزعيم الهندى الكبير استهدف من اول حياته السياسية والروحية مبدأين عظيمين حصر فيهما زعامته السياسية و شخصيته الروحية

أتى النبى صلى الله عليه و سلم بيت الدعوة و الاصلاح من بابه و وضع على قفل الطبيعة البشرية مفتاحه. ذلك القفل المعقد الذى أعيا فتحه جميع المصلحين فى عهد الفترة وكل من حاول فتحه من بعده بغير مفتاحه. دعا الناس الى الايمان بالله وحده و رفض الأوثان و العبادات و الكفر بالطاغوت بكل معانى الكلمة. و قام فى القوم

---

(تابع هامش ص ٧) القوية النادرتين فى هذا العصر شعار المبدأ الاول «لاعنف و لامقاومة» وقد دعا الى هذا المبدأ كديانة و فلسفة و ظل سنين طوالا يدعو اليها بخطابه و مقالاته و صحفه واستنفد فى ذاك جهوده و لما لم يكن ذلك عن طريق التغيير النفسى و عن طريق الدعوة الدينية الاساسيه لم تؤثر دعوته فى نفسية أمته تأثيرا عميقا و قد جعلت هذه الامة دعوته هباءاً منثوراً فى الاضطرابات الطائفية العظيمة التى وقعت فى بنجاب الشرقية و دهلى عاصمة الهند فى ستمبر و اكتوبر التى قتل فيها من المسلمين اكثر من نصف مليون و كانت مجزرة بشرية هائلة وقع فيها من القسوة و الهمجية و الاعتداء على الأطفال والنساء و الأعراض مالايكاد يصدقه المورخون المتأخرون، حتى انتهت باغتيال هذا الرجل العظيم الذى نمت به امته الى التقديس و التاليه.

و المبدأ الثانى نسخ اللمس المسوذ و لم ينجح فى مهمته كذلك نجاحا يعتد به. فكان ذلك برهانا ساطعا على أن طريق الأنبياء هو الطريق الطبعى الصحيح فى الاصلاح و التغيير.

ينادى «يا ايها الناس قولوا: لا اله الا الله تفلحوا» و دعا هم الى الايمان برسالته و الايمان بالآخرة.

ما اخطأ المجتمع الجاهلى فهم هذه الدعوة و مراميها و ما غم على أهله أمرها و أدركوا عندما قرع اسماعهم صوت النبى صلى الله عليه و سلم ان دعوته الى الايمان بالله وحده سهم مسدد الى كبد الجاهلية و نعى لها، فقامت قيامة الجاهلية و دافعت عن تراثها دفعها الاخير وقاتلت فى سبيل الاحتفاظ به قتال المستميت واجلبت على الداعى صلى الله عليه وسلم بخيلها ورحلها و جائت بحدها وحديدها «و انطلق الملأ منهم ان امشوا واصبروا على آلهتكم. ان هذا لشيئ يراد» و وجد كل ركن من اركان هذه الحياة و من أثاف الجاهلية نفسه مهددة وحياته منذذة وهنا وقع ما تحدث عنه التاريخ من حوادث الاضطهاد والتعذيب. وكان ذلك آية توفيق النبى صلى الله عليه وسلم وأنه أصاب الغرض وضرب على الوتر الحساس و اصاب الجاهلية فى صميمها وفى مقتلها، وثبت النبى صلى الله عليه وسلم على دعوته ثبوتا دونه ثبوت الراسيات لا يثنيه أذى و لايلويه كيد ولا يلتفت الى إغراء و يقول لعمه «يا عم لو وضعت الشمس

فى يمينى والقمر فى يسارى ماتركت هذا لامر حتى يظهره الله اواهلك فى طلبه ا»

مكث بمكة ثلاث عشرة بحجة يدعو الى الله وحده والايمان برسالته واليوم لآخر فى كل صراحة، لا يكنى ولايلوح ولايلين ولا يستكين ولا يحابى ولايداهن ويرى فى ذلك دواء لكل داء، وقامت قريش وصاحوا به من كل جانب وموعن قوس واحدة واضرموا الملاد عليه نارا ليحولوا بيه وبين أبنائهم واخونهم، فاصبح الايمان به والانحيازاليه حدا لجد لا يتقدم اليه الا جاد مخلص هانت عليه نفسه وعزم على أن يقتحم لاجله النيران ويمشى اليه ولوعلى حسك السعدان. فتقدم فتية من قريش لايستخفهم طيش الشباب، ولايستهويهم مطمع من مطامع الدينا، انما همهم الآخرة، وبغيتهم الجنة، سمعوا مناديا ينادى للايمان ان آمنوا بربكم فضاقت عليهم الحياة بالجاهلية بما رحبت وضاقت عليهم انفسهم وأقضت بهم مضاجعهم وكأنهم على الحسك ورأوا انهم لا يسعهم الا الايمان بالله ورسوله فآمنوا وتقدموا الى لنبى صلى الله عليه وسلم وهو فى بلد هم وبين سمعهم ونصرهم فكانت رحلة

---

١-البداية والنهاية ج ٣ ص ٣٣-

طويلة شاقة لما اقامت قريش بينه و بين قومه من عقبات و وضعوا ايديهم فى يده واسلموا انفسهم و ارواحهم اليه و هم من حياتهم على خطر و من البلاء والمحنة على يقين. سمعوا القرآن يتلى «ام حسب الناس ان يتركوا أن يقولوا آمنا و هم لا يفتنون ٥ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين» وسمعوا قوله تعالى «ام حسبتم أن تدخلوا الجنة و لما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله الا ان نصر الله قريب» فما كان من قريش الا ما توقعوه قد نثرت كنانتها وا طلقت عليهم كل سهم من سهامها فما زادهم كل هذا الا ثقة و تجلداً وقالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ومازادهم الا ايمانا وتسليما، ولم يزدهم هذا البلاء والا ضطهاد فى الدين الا متانة فى عقيدتهم وحمية لدينهم ومقتا للكفر وأهله و إشعالا لعاطفتهم و تمحيصاً لنفوسهم فاصبحوا كالتبر المسبوك واللجين الصافى وخرجوا من كل محنة وبلاء خروج السيف من الجلا.

هـذا والرسول - صلى الله عليه وسلم - يغذى أرواحهم بالقرآن ويربى نفوسهم بالإيمان ويخضعهم امام رب العالمين خمس مرات فى اليوم عن طهارة بدن وخشوع قلب وخضوع جسم وحضور عقل فيزدادون كل يوم سمو روح ونقاء قلب ونظافة خلق وتحرراً من سلطان الماديات وجماح الشهوات ونزوعا الى رب الارض والسموات، ويأخذهم بالصبر على الأذى والصفح الجميل وقهر النفس، لقد رضعوا بالحرب وكأنهم ولدوا مع السيف وهم من امة من ايامها حرب بسوس وداحس والغبراء وما يوم الفجار ببعيد - ولكن الرسول يقهر طبيعتهم الحربية ويكبح نخوتهم العربية ويقول لهم «كفوا ايديكم وأقيموا الصلواة» فانقهروا لامره وكفوا ايديهم وتحملوا من قريش ما تسيل منه النفوس فى غير جبن وفى غير عجز ولم يسجل التاريخ حادثة دافع فيها مسلم فى مكة عن نفسه بالسيف وملكته سوره النفس مع كثرة الدواعى الطبيعية الى ذلك وقوتها وذلك غاية ما روى فى التاريخ من الطاعة والخضوع، حتى اذا تعدى قريش فى الطغيان وبلغ السيل الزبى أذن الله لرسوله ولأصحابه بالهجرة وهاجروا الى يثرب وقد سبقهم اليها الاسلام.

والتقى أهل مكة باهل يثرب لايجمع بينهم الا الدين
الجديد، فكان اروع منظر لسلطان الدين شهده التاريخ،
وكانت أوس والخزرج لم ينفضوا عنهم غبار حرب بعاث
ولاتزال سيوفهم تقطر دماً، فألف الاسلام بين قلوبهم
لو أنفق احد ما فى الارض جميعاً ماالف بين قلوبهم
ثم آخى رسول الله، صلى الله عليه و سلم، بينهم و بين المهاجرين
فكانت اخوة تزرى باخوة الاشقاء وتبذ كل ما روى فى التاريخ
من حلة الاخلاء.

كانت هذه الجماعة الوليدة المؤلفة من أهل مكة
المهاجرين و أهل يثرب الأنصار نواة للامة الاسلامية
الكبيرة التى أخرجت للناس ومادة للاسلام، فكان
ظهور هذه الجماعة فى هذه الساعة العصيبة وقاية للعالم من
الانحلال الذى كان يهدده و عصمة للانسانية من الفتن
والأخطار التى أحدقت بها، لذلك قال الله تعالى لما حض على
الأخوة و الألفة بين المهاجرين والأنصار «الا تفعلوه
تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير».

و لم يزل الرسول صلى الله عليه و سلم يربيهم تربية دقيقة

عميقة، ولم يزل القرآن يسمو بنفوسهم ويذكى جمرة قلوبهم ولم تزل مجالس الرسول، صلى الله عليه وسلم، تزيدهم رسوخاً فى الدين و عزوما عن الشهوات و تفانيا فى سبيل المرضاة وحنينا الى الجنة و حرصاً على العلم وفقها فى الدين ومحاسبة للنفس يطيعون الرسول فى المنشط والمكره و ينفرون فى سبيل الله خفافا و ثقالا. قد خرجوا مع الرسول للقتال سبعا و عشرين مرة فى عشر سنين، وخرجوا بامره لقتال العدو أكثر من مأة مرة، فهان عليهم التخلى عن الدنيا و هانت عليهم رزينة اولادهم و نسائهم فى نفوسهم. ونزلت الآيات بكثير مما لم يألفوه و لم يتعودوه، وبكل ما يشق على النفس اتيانه فى المال والنفس والولد والعشيرة فنشطوا وخفوا لامتثال أمرها؛ انحلت العقدة الكبرى-عقدة الشرك والكفر- فانحلت العقد كلها وجاهدهم الرسول جهاده الاول فلم يحتج الى جهاد مستأنف لكل امر و نهى، وانتصر الاسلام على الجاهلية فى المعركة الأولى، فكان النصر حليفه فى كل معركة، وقد دخلوا فى السلم كافة بقلوبهم و جوارحهم و ارواحهم كافة، لايشاقون الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى و لايجدون فى انفسهم حرجا مما قضى ولايكون لهم الخيرة من بعد ما أمر أو نهى،

حدثوا الرسول مما اختانوا انفسهم، وعرضوا أجسادهم للعذاب الشديد إذا فرطت منهم زلة استوجبت الحد. نزل تحريم الخمر والكؤس المدفقة فى راحاتهم، فحال امر الله بينها وبين الشفاه المتلمظة والاكباد المتقدة و كسرت دنان الخمر فسالت فى سكك المدينة.

حتى اذا خرج حظ الشيطان من نفوسهم بل خرج حظ نفوسهم من نفوسهم وانصفوا من انفسهم إنصافهم من غيرهم واصبحوا فى الدنيا رجال لآخرة وفى اليوم رجال الغد لاتجزعهم مصيبة و لاتبطرهم نعمة و لا تشغلهم فقر و لا يطغيهم غنى، لا تلهيهم تجارة ولاتستخفهم قوة لايريدون علوا فى الارض ولافسادا و صبحوا للناس القسطاس المستقيم قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسهم او الوالدين والاقربين، وطأ لهم أكناف الأرض واصبحوا عصمة للبشرية و وقاية للعالم و داعية الى دين الله و استخلفهم الرسول صلى الله عليه و سلم فى عماله و لحق بالرفيق الاعلى قرير العين من أمته و رسالته.

لقد كان هذا الانقلاب الذى احدثه، صلى الله عليه و سلم،

فى نفوس المسلمين و بواسطتهم فى المجتمع الانسانى اغرب ما وقع فى تاريخ البشر، وقدكان هذا الانقلاب غريباً فى كل شيئ: كان غريباً فى سرعته و كان غريبا فى عمقه وكان غريباً فى سعته و شموله وكان غريباً فى وضوحه وقربه الى الفهم، فلم يكن غامضاً ككثير من الحوادث الخارقة للعادة ولم يكن لغزة من الالغاز فلندرس هذا الانقلاب علميا و لنتعرف مدى تاثيره فى المجتمع الانسانى و التاريخ البشرى.

---

كان الناس. عربا و عجما. يعيشون حياة جاهلية يسجدون فيها لكل ماخيلق لاجلهم و يخضع لإرادتهم و تصرفهم لا يثيب الطائع بجائزة و لا يعذب العاصى بعقوبة و لا يأمر و لا ينهى، فكانت الديانة سطحية طافية فى حياتهم ليس لها سلطان على ارواحهم و نفوسهم و قلوبهم و لاتاثير لها فى أخلاقهم و اجتماعهم، كانوا يومنون بالله كصانع اتم عمله واعتزل و تنازل عن مملكته لاناس خلع عليهم خلعة الربوبية فاخذوا بأيديهم أزمة الامر و تولوا ادارة المملكة و تدبير شئونها

و توزيع أرزاقها الى غير ذلك من مصالح الحكومة المنظمة فكان إيمانهم بالله لايزيد على معرفة تاريخية، فكان إيمانهم بالله و إحالتهم خلق السموات و الارض الى الله لايختلف عن جواب تلميذ من تلاميذ فن التاريخ يقال له «من بنى هذا القصر العتيق؟» فيسمى ملكا من الملوك الاقدمين من غير ان يخافه و يخضع له فكان دينهم عاريا عن الخشوع لله و دعائه و ماكانوا يعرفون عن الله ما يحببه إليهم فكانت معرفتهم مبهمة غامضة قاصرة مجملة لاتبعث فى نفوسهم هيبة و لا محبة.

و هذه الفلسفة اليونانية قدعرفت بواجب الوجود فى سلوب ليست فيها صفة مثبتة من صفات القدرة و الربوبية والإعطاء و المنع و الرحمة و لم تثبت له الا الخلق الأول، و نفت عنه الاختيار و العلم والارادة و نفت الصفات و قررت كليات كلها حط عن قدر الخالق و قياس على الخلق، و السلوب إذا اجتمعت لم تفد فائدة إيجاب واحد، ولم نعلم مدنية واحدة و لامجتمعا ولا نظاما ولأعملا و لا بناية قامت على مجرد السلوب، فتجردت الديانة فى أوساط الفلسفة الإعزيقية عن روح الخشوع والاستكانة لله والألتجاء

اليه فى الحوادث و محبته بكل القلب و هكذا فقدت الديانه السائدة على العالم روحها و أصبحت طقوسا و تقاليد وأشباحا للايمان.

انتقل العرب و الذين أسلموا من هذه المعرفة العليلة الغامضة الخشبية الى معرفة عميقة واضحة روحية ذات سلطان على الروح و النفس و القلب و الجوارح، ذات تاثير فى الأخلاق والاجتماع ذات سيطرة على الحياة وما يتصل بها، آمنوا بالله الذى له الاسماء الحسنى والمثل الاعلى آمنوا برب العالمين الرحمٰن الرحيم مالك يوم الدين الملك القدوس السلام المومن المهيمن العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق البارئ المصور، العزيز الحكيم الغفور الودود الرؤف الرحيم، له الخلق والأمر بيده ملكوت كل شئ يجير ولا يجار عليه الى آخر ما جاء فى القرآن من وصفه، يثيب بالجنة و يعذب بالنار ويبسط الرزق لمن يشاء و يقدر يعلم الخبء فى السموات والارض و يعلم خائنة الاعين و ما تخفى الصدور الى آخر ما جاء فى القرآن من قدرته وتصرفه و علمه، فانقلبت نفسيتهم بهذا الإيمان الواسع العميق او صح إنقلابا عجيباً. فاذا آمن احد بالله و شهد ان

لا اله الا الله انقلبت حياته ظهراً لبطن، تغلغل الايمان في احشائه و تسرب الى جميع عروقه و مشاعره و جرى منه مجرى الروح و الدم، واقتلع جرائيم الجاهلية و جذورها و غمر العقل و القلب بفيضانه و جعل منه رجلا غير الرجل و ظهر منه من روائع الايمان و اليقين والصبر و الشجاعة و من خوارق الأفعال والأخلاق ما حير العقل و الفلسفة و تاريخ الاخلاق و لاتزال موضع حيرة و دهشة منه الى الأبد، و عجز العلم عن تعليله بشيء غير الإيمان الكامل العميق.

و كان هذا الايمان مدرسة خلقية و تربية نفسية تملي على صاحبها افضائل الخلقية من صرامة ارادة و قوة نفس و محاسبتها و الإنصاف منها و كان اقوى وازع عرفه تاريخ الاخلاق و علم النفس عن الزلات الخلقيه و السقطات البشريه حتى اذا جمحت السورة البهيميه في حين من الاحيان و سقط الانسان سقطة و كان ذلك حيث لاتراقبه عين و لا تتناوله يد القانون تحول هذا الإيمان نفسا لوامة عنيفة و وخزا لاذعا للضمير و خيالا مروعا لايرتاح معه صاحبه حتى يعترف بذنبه أمام القانون و يعرض

نفسه للعقوبة الشديدة و يتحملها مطمئنا مرتاحاً تفاديا من سخط الله و عقوبة الآخرة.

و قد حدثنا المورخون الثقات فى ذلك بطرائف لم يحدث نظيرها الا فى التاريخ الاسلامى الدينى، فمنها ماروى مسلم بن الحجاج القشيرى صاحب الصحيح بسنده عن عبد الله بن بريدة عن أبيه عن ماعزبن مالك الأسلمى أنه أتى رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال: «يا رسول الله، انى ظلمت نفسى و زنيت و انى أريد ان تطهرنى». فرده فلما كان من الغد أتاه فقال: «يا رسول الله انى قدزنيت». فرده الثانية فارسل رسول الله صلى الله عليه و سلم الى قومه فقال «أتعلمون بعقله بأساً تنكرون منه شيئاً»؟ فقالوا: «ما نعلمه الا وفى العقل من صالحينا فيما نرى» فأتاه الثالثة فأرسل اليهم أيضاً فسئل عنه فاخبروه أنه لابأس به و لابعقله. فلما كانت الرابعة حفر له حفرة ثم أمره فرجم.

قال فجائت الغامدية فقالت «يا رسول الله انى قدزنيت فطهرنى» و انه ردها فلما كان الغد قالت: يا رسول الله لم تردنى؟ لعلك ان تردنى كما رددت ماعزاً

فوالله انى لحبلى قال، أما لا فاذهبى حتى تلدى، قال فلما ولدت أتته بالصبى فى خرقة. قالت هذا قد ولدته. قال اذهبى فارضعيه حتى تطعميه. فلما فطمته أتته بالصبى فى يده كسرة خبز، فقالت هذا، يا نبى الله. قد فطمته وقد أكل الطعام فدفع الصبى الى رجل من المسلمين ثم أمرها فحفر لها الى صدرها وأمر الناس فرجموها. فاستقبل خالد بن وليد بحجر فرمى رأسها فتنضح الدم على وجه خالد فسبها فسمع نبى الله سبه إياها فقال «مهلا يا خالد. فوالذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفرله» ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت[١].

وكان هذا الايمان حارساً لأمانة الانسان وعفافه وكرامته يملك نفسه النزوع امام المطامع والشهوات الجارفة وفى الخلوة والوحدة حيث لايراه أحد، وفى سلطانه ونفوده حيث لا يخف أحداً. وقد وقع فى تاريخ الفتح الاسلامى من قضايا العفاف عند المغنم وأداء الأمانات الى أهلها والإخلاص لله مايعجز التاريخ البشرى عن نظائره وما ذاك إلا نتيجة رسوخ الايمان ومراقبة الله واستحضار علمه فى كل مكان وزمان.

---

١ــ صحيح مسلم كتاب الحدود.

حدث الطبری قال لماهبط المسلمون المدائن و جمعوا الأقباض أقبل رجل بحق معه فدفعه الى صاحب الأقباض فقال و الذين معه مارأينا مثل هذا قط مايعدله ماعندنا و لايقاربه فقالوا هل أخذت منه شيأ؟ فقال أما و الله، لولا الله ما أتيتكم به، فعرفوا ان للرجل شأناً فقالوا من انت؟ فقال لا و الله لا اخبركم لتحمدونى ولا غيركم ليقرظونى و لكنى أحمد الله و أرضى بثوابه فاتبعوه رجلا حتى انتهى الى اصحابه فسأل عنه فاذاهو عامر بن عبد قيس[١]-

وكان هذا الايمان بالله وحده قد رفع رأسهم عالياً أقام صفحة عنقهم فلم تخن لغير الله أبداً لا لملك جبار و لالحبر من الاحبار و لا لرئيس دينى ولادنيوى وملأ قلوبهم و عيونهم بكبرياء الله تعالى و عظمته فهانت فيها وجوه الخلق وزخارف الدنيا و مظاهر العظمه و الفخفخة فاذا رأوا الى الملوك و حشمتهم و ماهم فيه من ترف و نعيم و زينة وزخرف فكأنهم ينظرون الى صورودمى قد كسيت ملابس الانسان.

---

١ــ تاريخ الطبرى ج ٣ ص ١٦ -

عن ابي موسى قال انتهينا الى النجاشي و هو جالس في مجلسه و عمرو بن العاص عن يمينه و عمارة عن يساره والقسيسون جلوس سماطين و قد قال له عمرو و عمارة انهم لايسجدن لك فلما انتهينا بدرنا من عنده من القسيسين و الرهبان، اسجدو الملك فقال جعفر لا نسجد الا لله ا.

ارسل سعد قبل القادسية ربعى بن عامر رسولا الى رستم قائد الجيوش الفارسية و أميرهم فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق و الزرابى الحرير و اظهر اليواقيت و اللآلى الثمينة العظيمة و عليه تاجه و غير ذلك من الامتعة الثمينة و قد جلس على سرير من ذهب و دخل ربعى بثياب صفيقه و ترس و فرس قصيرة و لم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ثم نزل و ربطها ببعض تلك الوسائد و أقبل و عليه سلاحه و درعه وبيضه على رأسه، فقالوا له ضع سلاحك فقال انى لم آتكم و انما جئتكم حين دعوتمونى فان تركتمونى هكذا و الا رجعت فقال رستم

---

؛ـــ البدايه ج ٣.

ائذ نوا له فأقبل يتوكأ على رمحه موق النمارق نخرق عامتها فقالوا له ماجاء بكم فقال الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله و من صيق الدنيا الى سعتها و من حور الأديان الى عدل الإسلام.

و لقد بعث الايمان بالآخرة فى قلوب المسلمين شجاعة خارقة للعادة و حنينا غريباً الى الجنة و استهانة نادرة بالحياة تمثلوا الآخرة و تجلت لهم الجنة بنعمائها كأنهم رأى عين فطاروا اليها طيران حمام الزاجل لايلوى على شيئ.

تقدم أنس بن النضر يوم أحد و انكشف المسلمون فاستقبله سعدبن معاذ فقال يا سعد بن معاذ، الجنة و رب الكعبة انى أجد ريحها من دون أحد، قال أنس فوجدنا به بضعاً و ثمانين ضربة بالسيف اوطعنة برمح اورمية بسهم و وجدناه قد قتل و مثل به المشركون فماعرفه احد الاأخته ببنانه ١

قال رسول الله صلى الله عليه و سلم يوم بدر قوموا

---

١ــمتفق عليه.

الى جنة عرضها السموات والارض فقال عمير بن الحمام الانصارى يا رسول الله جنة عرضها السموات والارض قال بخ بخ نعم، قال فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم مايحملك على قولك بخ بخ قال لا و الله يا رسول الله الا رجاء ان أكون من أهلها قال فانك من أهلها فاخرج تمرات من قرنه فجعل ياكل منهن ثم قال لئن انا حييت حتى آكل تمراتى هذه انها لحياة طويلة فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل ١ .

عن أبى بكر بن أبى موسى الاشعرى قال سمعت ابى رضى الله عنه و هو بحضرة العدو يقول قال رسول الله صلى الله عليه و سلم ان ابواب الجنة تحت ظلال السيوف فقام رجل رث الهيئة فقال يا أبا موسى أأنت سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول هذ قال نعم فرجع الى اصحابه فقال أقرء عليكم السلام ثم كسر جفن سيفه فالقاه ثم مشى بسيفه الى العدو فضرب حتى قتل ١ .

كان عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج و كان

---

١ــ رواه مسلم .

له أربعة بنين شباب يغزون مع رسول الله صلى الله عليه و سلم اذا غزا فلما توجه الى احد أراد ان يتوجه معه فقال له بنوه ان الله قد جعل لك رخصة فلو قعدت و نحن نكفيك و قد وضع الله عنك الجهاد فأتى عمرو بن الجموح رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال يا رسول الله ان بنى هولاء يمنعونى ان اخرج معك و والله انى لارجو ان استشهد فأطأ بعرجتى هذه فى الجنة فقال له رسول الله صلى الله عليه و سلم أما انت فقد وضع الله عنك الجهاد و قال لبنيه و ما عليكم ان تدعوه لعل الله عزوجل ان يرزقه الشهادة فخرج مع رسول صلى الله عليه و سلم فقتل يوم أحد شهيداً[١].

قال شداد بن الهاد جاء رجل من الأعراب الى النبى صلى الله عليه و سلم فآمن به و اتبعه فقال أهاجر معك فاوصى به بعض اصحابه فلما كانت غزوة خيبر غنم رسول الله صلى الله عليه و سلم شيأً فقسمه و قسم للاعرابى فأعطى اصحابه ما قسم له و كان يرعى ظهرهم فلما جاء دفعوه اليه فقال ماهذا؟ قالوا قسم قسمه لك رسول الله صلى الله

---

١ — زادالمعاد ج ٢ ص ١٣٤ -

عليه و سلم فأخذه فجاء به الى النبى صلى الله عليه و سلم فقال ماهذا يا رسول الله قال قسم قسمته لك قال ما على هذا اتبعتك و لكن اتبعتك على أن أرمى ههنا و أشار الى حلقه بسهم فأموت فادخل الجنة فقال ان تصدق الله ليصدقك ثم نهضوا الى قتال العدو فأتى به النبى صلى الله عليه و سلم و هو مقتول فقال أهو هو؟ قالوا: نعم فقال صدق الله فصدقه ١ـ

و كانوا قبل هذا الإيمان فى فوضى من الافعال والأخلاق و السلوك والاخذ والترك و السياسة و الاجتماع لايخضعون لسلطان و لا يقرون بنظام و لا ينخرطون فى سلك، يسيرون على الاهواء و يركبون العمياء و يخبطون خبط عشواء، فاصبحوا الآن فى حظيرة الايمان والعبودية لايخرجون منها واعترفوا لله بالملك و السلطان و الامر والنهى ولأنفسهم بالرعوية و العبودية و الطاعة المطلقة و أعطوا من انفسهم المقادة و استسلموا للحكم الالهى استسلاماً كاملا و وضعوا اوزارهم و تنازلوا عن اهوائهم و أنانيتهم و أصبحوا عبيداً لا يملكون مالا و لا نفسا و لا تصرفا

---

١ــ زاد المعاد ج ٢ ص ١٩٠ ـ

فى الحياة الا مايرضاه الله و يسمح به لا يحاربون ولا يصالحون
الا باذن الله ولا يرضون و لا يسخطون و لا يعطون
و لا يمنعون ولا يصلون و لا يقطعون الا باذنه و وفق امره
و لما كان القوم يحسنون اللغة التى نزل بها القرآن
و تكلم فيها الرسول صلى الله عليه و سلم عرفوا الجاهلية ،
نشأوا عليها، عرفوا معنى الاسلام معرفة صحيحة و عرفوا
انه خروج من حياة الى حياة، و من مملكة الى مملكة
و من حكم الى حكم أو من فوضوية الى سلطة، و من
حرب الى استسلام و خضوع ، و من الأنانية الى العبودية
فإذا دخلوا فى الاسلام فلا اختيار فى الرأى و لا نزاع
مع القانون الالهى و لا خيرة بعد الامر و لا مشاقة للرسول
و لا تحاكم الى غير الله و لا اصدار عن الرأى و لا تمسك
بتقاليد و عادات ولا ائتمار بالنفس فكانوا اذا اسلموا انتقلوا من
الحياة الجاهلية بخصائصها و عاداتها و تقاليدها الى الاسلام
بخصائصه و عاداته و اوضاعه و كان هذا الانقلاب العظيم
يحدث على اثر قبول الاسلام من غير تأن .

هم فضالة بن عمير بن الملوح ان يقتل رسول الله
صلى الله عليه و سلم و هو يطوف بالبيت فلما دنا منه

قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضالة؟ قال نعم فضالة يا رسول الله! قال ماذا كنت تحدث به نفسك؟ قال لاشيئ كنت أذكرالله. فضحك النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال استغفر الله ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه وكان فضالة يقول والله مارفع يده عن صدرى حتى ماخلق الله شيأ أحب الىّ منه قال فضالة فرجعت الى أهلى فمررت بامرأة كنت اتحدث أليها قالت هلم الى الحديث فقلت يأبى الله عليك والاسلام[١].

وقد كان الأنبياء عليهم السلام أخبروا الناس عن ذات الله وصفاته وأفعاله وعن بداية هذا العالم ومصيره وما يهجم عليه الانسان بعد موته وأثابهم علم ذلك كله بواسطتهم عفواً بدون تعب وكفوهم مؤنة البحث والفحص فى علوم ليس عندهم مبادئها ولا مقدماتها التى يبنون عليها بحثهم ليتوصلوا الى مجهول لأن هذه العلوم وراء الحس والطبيعة لا تعمل فيها حواسهم ولا يؤدى اليها نظرهم وليست عندهم معلوماتها الأولية.

لكن الناس لم يشكروا هذه النعمة وأعادوا الامر جذعاً وبدأوا البحث أنفاً وساروا رحالهم فى مناطق مجهولة

---

١ ـ سنن داود ج ٢ ص ١٣٣.

لا يجدون فيها مرشدا و لا خريتا و كانوا فى ذلك أكثر ضلالا و أشد تعبا و اعظم اشتغالا بالفضول من رواد لم يقتنع بما أدى اليه العلم الإنسانى فى الجغرافية و ماحدد و ضبط فى الخرائط على تعاقب الأجيال فحاول أن يقيس ارتفاع الجبال و عمق البحار من جديد و يختبر الصحارى والمسافات و الحدود بنفسه على قصر عمره و ضعف قوته و فقدان آلته فلم يلبث ان انقطعت به مطيته و خانته عزيمته فرجع بمذكرات وإشارات مختلة وكذلك الذين خاضوا فى الالهيات من غير بصيرة و على غير هدى، جاؤا فى هذا العلم بآراء فجة و معلومات ناقصه و خواطر سانحة و نظريات مستعجلة فضلوا و أضلوا.

و كذلك منحهم الأنبياء عليهم السلام مبادئ ثابتة و محكمات هى أساس المدنية الفاضلة و الحياة السعيدة فى كل زمان و مكان فحرموها على تعاقب الأعصار فبنوا مدنيتهم على شفا جرف هار و أساس منهار و على قياس و اختبار فزاغ أساس المدنية و تداعى بناؤها و خر عليهم السقف من فوقهم.

و قد كان الصحابة رضى الله عنهم سعداء موفقين

جدا اذ عولوا فى ذلك كله على رسول الله صلى الله عليه و سلم فكفوا المؤونة و سعدوا بالثمرة و وفروا ذكائهم و قوتهم و جهادهم فى غير جهاد و وفروا عليهم أوقاتهم فصرفوها فى مايعنيهم من الدين والدنيا و تمسكوا بالعروة الوثقى و أخذوا فى الدين بلب اللباب.

إنّ هذا الإيمان بالله و الرسول واليوم الآخر و الاسلام لله ولدينه أقام عوج الحياة ورد كل فرد فى المجتمع البشرى الى موضعه لايقصرعنه و لا يتعداه وأصبحت الهيئة البشرية باقة زهر لاشوك فيها. أصبح الناس أسرة واحدة أبوهم آدم و آدم من تراب لافضل لعربي على عجمى ولا لعجمى على عربى الا بالتقوى يقول النبى صلى الله عليه و سلم «كلكم بنو آدم و آدم خلق من تراب و لينتهين قوم يفخرون بآبائهم اوليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان!» و يسمعه الناس يقول «يا ايها الناس ان الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية و تعظمها بآبائها فالناس رجلان رجل بر تقى كريم على الله تعالى و رجل فاجر شقى هين

---

١ــ تفسير ابن كثير سورة الحجرات.

على الله تعالى!» و يقول «ان أنسابكم هذه ليست لمنسبة على أحد كلكم بنو آدم طف الصاع لم يملؤه ليس لأحد على أحد فضل الا بالدين و التقوى ²» و عن أبي ذر رضى الله عنه ان النبي صلى الله عليه و سلم قال له «انظر فانك لست بخير من أحمر و لا اسود الا ان تفضله بتقوى الله ³» و يسمعه الناس يقول فى ماينـاجى به ربه فى آخر الليل «و انا شهيد ان العباد كلهم إخوة» ³ .

واقتلع صلى الله عليه و سلم جذور الجاهلية و جراثيمها و حسم مادتها و سد كل نافذة من نوافذها فقال «ليس منا من دعا الى عصبية و ليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية ⁴» و عن جابر بن عبد الله قال «كنا فى غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار فقال الانصارى يا للأنصار فقال المهاجرى يا للمهاجرين فقال

---

١ــ رواه ابن ابي حاتم

٢ــ رواه الامام احمد

٣ رواه ابو داؤد

٤ــ رواه ابو داؤد

النبي صلى الله عليه وسلم دعوها فانها منتنة[1]» وحرم حمية الجاهلية و قيد ذلك التناصر الذى حرت الجاهلية العربية على إطلاقه فكان من الأمثال السائرة و شرائع الجاهلية الثابتة «انصر أخاك ظالما أو مظلوما» قال النبي صلى الله عليه وسلم «من نصر قومه على غير الحق فهو كالبعير الذى ردى فهو ينزع بذنبه[2]» و تغيرت بذلك نفسية العربي و عقليته حتى أصبح ذوق المسلم العربي لا يسيغ ذلك المثل العربي السائر حتى اذا قال النبي صلى الله عليه وسلم مرة «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» لم يملك نفسه فقال «يارسول الله هذا نصرته مظلوماً فكيف أنصره ظالماً؟» قال صلى الله عليه وسلم «تمنعه من الظلم فذلك نصرك إياه[3]».

وأصبحت الطبقات والأجناس فى المجتمع الأسلامى متعاونة متعاضدة لا يبغى بعضها على بعض فالرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض و بما انفقوا من أموالهم، والنساء صالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله، لهن مثل الذى عليهن بالمعروف. وأصبح كل واحد

---

١ــ رواه البخارى .
٢ــ تفسير ابن كثير .
٣ــ حديث متفق عليه .

فى المجتمع راعيا و مسؤلا عن رعيته، الامام راع و مسئول عن رعيته والرجل راع فى أهله و مسئول عن رعيته و المرأة راعية فى بيت زوجها و مسئولة عن رعيتها والخادم راع فى مال سيده و مسئول عن رعيته ١ و هكذا كان المجتمع الا لامى مجتمعا رشيداً عاقلا مسئولا عن أعماله.

وأصبح المسلمون أعوانا على الحق أمرهم شورى بينهم يطيعون الخليفة ما أطاع الله فيهم فان عصى فلا طاعة له عليهم و أصبح شعار الحكم «لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق ١» وأصبحت الأموال والخزائن التى كانت طعمة للملوك والأمراء و دولة بين الأغنياء مال الله الذى لاينفق الا فى وجهه و لايخرج الا فى حقه و أصبح المسلمون مستخلفين فيه والخليفة كولى اليتيم ان استغنى استعف وان افتقر أكل بالمعروف وأصبحت الأرض التى اغتصبها الملوك والأمراء يفسحونها لمن يشاؤن ويضيقونها على من يشاؤن ويقطعها بعضهم بعضا كما يقطع الثوب أصبحت أرض الله التى من

---

١ــ حديث نبوى.

ظلم قيد شبر منها طوّقه من سبع أرضين ١.

وكان المجتمع البشرى قد فقد نشاطه واريحيته فى الحياة وفى كل مايأتى ويذر وكان مجتمعاً حقاً مخنوقاً، فكان مدفوعاً الى ساحة الحرب من غير أن ينشط او يتحمس لأغراض أولى الأمر وكان مدفوعا الى الصلح ولم يقض من الحرب وطراً ولم يشف نفسه وكان الرجال فى هذا المجتمع يرغمون على التضحية والايثار ومكابدة المتاعب ومعاناة الامور الشاقة من غير هوى ومن غير وجدان ومن غير عاطفة، لايحبون القادة ولايحبونهم فكانوا مرغمين على ان يطيعوا من لايحبونه ويفدوا بأرواحهم وأموالهم من يبغضونه، فانطفئت جمرة القلوب وبردت العواطف ونشأ الناس على النفاق والرياء والختل ونشأت النفوس على الذل وتحمل الضيم والصغار.

كانت العاطفة القوية التى يرجع اليها الفضل فى غالب عجائب الانسانية ومعظم الآثار الخالدة فى التاريخ، تلك التى يسميها الناس «الحب» تائهة ضائعة لم يظهر منذ قرون

---

١ — متفق عليه.

من يشغلها و يستثمرها فضاعت فى الوان الجمال الزاهية والمظاهر الخلابة الفانيه مماتغنّى به الشعراء قديما و حديثا.

فى هذا المجتمع الحائر المظلوم قام محمد صلى الله عليه و سلم فحل عقاله و فك إساره ثم حل منه محل الروح و النفس و شغل منه مكان القلب و العين و هو البشر الذى جمع الله له أسمى صفات الجمال والكمال وابلغ معانى الحسن والاحسان من رآه بديهة هابه و من خالطه معرفة احبه يقول ناعته لم أر قبله و لا بعده مثله. فاندفع اليه الحب الصادق كاندفاع الماء الى الحدور و انجذبت اليه النفوس و القلوب انجذاب الحديد الى المغناطيس كأنما كان من القلوب والأرواح على ميعاد و أحبه رجال أمته و اطاعوه حبا و طاعة لم يسمع بمثلها فى تاريخ العشاق و المتيمين و وقع من خوارق الحب والاضمحلال و التفانى فى سبيل طاعته و إيثاره على النفس و الاهل والمال والولد مالم يحدث قبله ولن يحدث بعده.

وطئ ابو بكر بن ابى قحافة فى مكة يوما بعد ما اسلم ، ضرب ضربا شديدا و دنا منه عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين و يحرفهما لوجهه ونزا على

بطن ابى بكر حتى مايعرف و جهه من انفه و حملت
بنو تيم ابا بكر فى ثوب حتى ادخلوه منزله و لايشكون فى موته
فتكلم آخر النهار فقال مافعل رسول الله صلى الله عليه و سلم؟
فمسوا منه بألسنتهم وعذلوه ثم قاموا وقالوا لامه أم الخير انظرى
ان تطعميه شيئاً اوتسقيه اياه فلما خلت به الحت عليه و جعل
يقول مافعل رسول الله صلى الله عليه و سلم؟ فقالت و الله مالى
علم بصاحبك فقال اذهبى الى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها
عنه فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت ان أبابكر يسألك
عن محمد بن عبد الله؟ فقالت ما أعرف أبابكر و لا محمد بن
عبد الله و ان كنت تحبين ان أذهب معك الى ابنك قالت
نعم فمضت معها حتى و جدت أبابكر صريعا دنفا فدنت أم جميل
وأعلنت بالصياح و قالت و الله ان قوماً نالوا هذا منك
لأهل فسق و كفر وانى لارجو ان ينتقم الله لك منهم قال
ما فعل رسول الله صلى الله عليه و سلم؟ قالت هذه أمك تسمع!
قال فلاشيئ عليك منها قالت سالم صالح! قال أين هو؟
قالت فى دار ابن الارقم قال فان لله على ان لا اذوق طعاماً
و لا اشرب شرابا أوآتى رسول الله صلى الله عليه و سلم
فامهلتا حتى اذا هدأت الرجل و سكن الناس خرجتا به

يتكئي عليهما حتى ادخلتاه على رسول الله صلى الله عليه و سلم ١ .

حرجت إمرأة من الانصار نتل ابوها و احوها و زوحها يوم أحد مع رسول الله سلى لله عليه و سلم فقالت ما فعل رسول الله صلى الله عليه سلم؟ قالو احيراً هو بحمد الله كما تحبين! قالت أرنيه حتى أنظر اليه فلما رأ.ه قالت كل مصيبة بعدك جلل ٢ .

رفعوا خبيبا رضى الله عنه على الخشبة و نادوه يناشدونه اتحب أن محمداً مكانك؟ قال لا والله العظيم ما أحب ان يفديني بشوكة يشاكها فى قدمه فضحكوا منه٣ .

قال زيد بن ثابت بعثنى رسول الله صلى الله عليه و سلم يوم أحد اطلب سعد بن الربيع فقال لى ان رأيته فاقرأه منى السلام و قل له يقول لك رسول الله صلى الله عليه و سلم كيف تجدك ، قال فجعلت اطوف بين القتلى فاتيته و هو بآخر

---

١ـــ البداية والنهاية ج ٣ ص ٣٠ .

٢ـــرواه ابن اسحاق امام المغازى و رواه البيهقى مرسلا .

٣ـــالبداية و النهاية ج ٣ ص ٦٣ .

رمق و فيه سبعون ضربة مابين طعنة رمح و ضربة بالسيف و رمية بسهم فقلت يا سعد ان رسول الله صلى الله عليه و سلم يقرأ عليك السلام و يقول لك أخبرنى كيف تجدك فقال و على رسول الله صلى الله عليه و سلم السلام و قل له يا رسول الله أجد ريح الجنة و قل لقومى الانصار لاعذر لكم عند الله ان خلص الى رسول الله صلى الله عليه و سلم و فيكم عين تطرف و فاضت نفسه من وقته[١].

وترس ابودجانة يوم احد على رسول الله صلى الله عليه و سلم بظهره و النبل يقع فيه و هولا يتحرك[٣] و مص مالك الخدرى جرح رسول الله صلى الله و سلم حتى انقاه قال له مجه قال و الله ما امجه ابداً[٢].

و قدم ابوسفيان المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه و سلم طوته عنه فقال يا بنية ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش أم رغبت به

---

١ــ زاد المعاد ج ٢ ص ١٣٣

١ــ أيضاً ص ١٣٠ .

٢ــ أيضاً ص ١٣٦ .

عنى قالت بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه و سلم وانت مشرك نجس[١] .

وقال عروة بن مسعود الثقفى لأصحابه بعد مارجع من الحديبية أى قوم والله لقد وفدت على الملوك على كسرى و قيصر والنجاشى و الله مارأيت ملكا يعظمه اصحابه مايعظم أصحاب محمد محمداً و الله ان تنخم نخامة الا وقعت فى كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده و اذا أمرهم ابتدروا أمره و اذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه و اذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده و مايحدون اليه النظر تعظيماله[٢] .

و لم يزل الانقياد والطاعة من جنود « الحب » المتطوعة فلما أحبه القوم بكل قلوبهم طاعوه بكل قوتهم . يمثل ذلك خير تمثيل ما قال سعد بن معاذ عن نفسه و عن الانصار قبل بدر « نى أقول عن الانصار و أجيب عنهم فاظعن حيث شئت و صل حبل من شئت و اقطع حبل من شئت

---

١ـــ ايضاً ج ٠ ص ٢٢٦ .

٢ـــ زاد المعاد ج ٢ ص ١٢٥ .

وخذ من اموالنا ماشئت و أعطنا ماشئت و ما أخذت منا كان أحب الينا مما تركت و ما امرت فيه من امر فأمرنا تبع لأمرك فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من عمدان لسيرن معك و لله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك»١ .

و كان من شدة طاعتهم له صلى الله عليه و سلم أنه صلى الله عليه و سلم نهى أهل المدينة عن كلام الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك فما كان من الناس الا أن اطاعوه و اصبحت المدينة لهؤلاء كانها مدينة الأموات ليس بها داع و لامجيب يقول كعب و نهى رسول الله صلى الله عليه و سلم عن كلامنا ايها الثلاثة من بين من تخلف عنه قال فاجتنبنا الناس او قال تغيروا لنا حتى تنكرت لى فى نفسى الارض فماهى با الارض التى أعرف الى ان قال حتى اذا طال على من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط ابى قتادة و هو ابن عمى واحب الناس الى فسلمت عليه فوالله ما رد

---

١ــ ايضاً ج ص ١٢٠ .

على الاسلام فقلت له يا أبا قتادة انشدك بالله هل تعلمنى احب الله و رسوله فسكت فعدت فناشدته فسكت فعدت فناشدته فقال: الله و رسوله أعلم، ففاضت عيناى و توليت حتى تسورت الجدار ١.

وكان من طاعته ايضاً. وهو فى موضع عتاب وجفوة. ان رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم ياتيه و يقول له ان رسول الله صلى الله عليه و سلم يأمرك ان تعتزل امرأتك فقال اطلقها ام ماذا افعل؟ فقال لا بل اعتزلها فلا تقربنها فقال لامرأته الحقى با هلك فكونى عندهم حتى يقضى الله من هذا الامر ٢.

وكان من حبه للرسول صلى الله عليه و سلم و ايثاره على كل أحد فى الدنيا ان ملك غسان خطب وده و يستلحقه بنفسه و تلك محنة عظيمة فى حال الجفوة و العتاب و لكنه رفض ذلك قال « بينما انا أمشى فى سوق المدينة اذا نبطى من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول

---

١، ٢ — متفق عليه.

من يدل على كعب بن مالك فطفق الناس يشيرون له الى حتى جاءني فدفع الى كتابا من ملك غسان و كنت كاتبا فقرأته فاذا فيه أما بعد فانه قد بلغنا ان صاحبك قد جفاك و لم يجعلك الله بدار هوان و لا مضيعة فالحق بنا نواسك فقلت حين قرأتها و هذه أيضاً من البلاء فتيممت بها التنور فسجرتها» ١ .

و من غرائب الطاعة وسرعة الانقياد ماحدث عند نزول النهي عن الخمر في مجلس شرب فعن ابي بريدة عن أبيه قال بينما نحن قعود على شراب لنا ونحن نشرب الخمر حلة اذقمت حتى آتي رسول الله صلى الله عليه و سلم فأسلم عليه • و قد نزل تحريم الخمر: يا ايها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب و الازلام رجس من عمل الشيطان الى آخر الآيتين فهل انتم منتهون فجئت الى أصحابي فقرأتها عليهم الى قوله فهل انتم منتهون قال و بعض القوم شربته في يده شرب بعضا و بقي بعض في الاناء فقال بالاناء تحت شفته العليا كما يفعل الحجام ثم صبوا ما في

---

١ـــ متفق عليه .

باطيتهم فقالو انتهينا وربنا انتهينا ربنا ١.

ومن غرائب الطاعة للرسول و إيثاره على النفس والأهل و العشيرة، ماروى عن عبد الله بن عبد الله بن أبي: روى ابن جرير بسنده عن ابن زيد قال دعا رسول الله صلى الله عليه و سلم عبد الله ابن عبد الله بن أبي قال الاترى مايقول أبوك؟ قال مايقول أبي أبي انت وأمي؟ قال يقول: لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الاذل فقال فقد صدق و الله يا رسول الله انت و الله الأعز و هو الأذل اما و الله لقد قدمت المدينة يا رسول الله و ان اهل يثرب ليعلمون ما بها احد أبر مني و لئن كان يرضى الله و رسوله أن آتيهما برأسه لآتيتهما به فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم لا، فلما قدموا المدينة قام عبد الله بن عبد الله بن ابي على بابها بالسيف لابيه ثم قال أنت القائل لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل اما و الله لتعرفن العزة لك او رسول الله صلى الله عليه و سلم، و الله لا

---

١ رواه ابن جرير بسنده في التفسير تحت قوله تعالى يا ايها الذين آمنوا انما الخمر الآية تفسير الطبري ج ٧ -

يا و يك ظله ولاتا و يه ابداً الا باذن من الله و رسوله فقال يا للخزرج ابنى يمنعنى بيتى ياللخزرج ابنى يمنعنى بيتى فقال و الله لايا و يه أبداً الا باذن منه فاجتمع اليه رجال فكلموه فقال و الله لا يد خله الا باذن من الله و رسوله فأتوا النبى صلى الله عليه و سلم فاخبروه فقال اذهبوا اليه فقولوا له خله و مسكنه فأتوه فقال أما اذا جاء أمر النبى صلى الله عليه و سلم فنعم ١

---

بهذا الايمان الواسع العميق و التعلم النبوى المتقن، و بهذه التربية الحكيمة الدقيقة و بشخصيته القوية الفذة و بفضل هذا الكتاب السماوى المعجز الذى لا تنقضى عجائبه و لا تخلق جدته بعث رسول الله صلى الله عليه و سلم فى الانسانية المحتضرة حياة جديدة، عمد الى الذخائر البشرية وهى أكدا اس من المواد الخام لا يعرف أحد غنائها و لا يعرف محلها و قد اضاعتها الجاهلية و الكفر و الإخلاد الى الارض فأو حد فيها باذن الله ألايمان و العقيدة، و بعث فيها الروح الجديدة، و أثار عن دفائنها و اشعل مواهبها، ثم و ضع كل واحد

---

١ تفسير الطبرى ج ٢٨ -

فى محله، فكانما خلق له، و كانما كان المكان شاغرا لم يزل ينتظره و يتطلع إليه و كأنما كان جماداً فتحول جسما ناميا و انسانا متصرفا و كأنما كان ميتا لايتحرك فعاد حياً يملى على العالم ارادته و كانما كان أعمى لا يبصر الطريق، فاصبح قائداً بصيرا يقود الامم «او من كان ميتا فاحييناه و جعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها»

محمد الى الأمة العربية الضائعة والى أناس من غيرها فما لبث لعالم ان رأى منهم نوابغ كانوا من عجائب الدهر و سوانح التاريخ، فاصبح عمر الذى كان يرعى الابل لأبيه الخطاب و يبهره و كان من اوساط قريش جلادة وصرامة لايتبوأ منها المكانة العليا و لا يحاسب له اقرانه حسابا كبيرا اذا به يفجأ العالم بعبقريته و عصا ميته و يدحر كسرى و قيصر عن عروشهما ويؤسس دولة اسلامية تجمع بين ممتلكاتهما و تفوقهما فى الإدارة و حسن النظام فضلا عن الورع و التقوى و العدل الذى لا يزال فيه المثل السائر، و هذا ابن الوليد كان احد فرسان قريش الشبان انحصرت كفائته

الحربية فى نطاق محلى ضيق يستعين به رؤساء قريش فى المعارك
القبليـة فينـال ثقتهم و ثنـائهم و لم يحرز الشهرة الفـائقة
فى نواحى الجزيرة اذا به يلمع سيفـا الٰهيـا لايقوم له شيئى
الاحصده و ينزل كصاعقـة على الروم و يترك ذكرا خـالداً
فى التاريخ، و هذا ابوعبيدة كان موصوفا بالصلاح والأ مانة
والرفق و يقود مسرا يا المسلمين اذابه يتولى القيادة العظمى
للمسلمين و يطرد هرقل من ربوع الشام و مروجها الخضراء
يلقى عليها نظرة الوداع و يقول سلام على سورية سلاما
لا لقاء بعده، و هذا عمرو بن العاص كان يعد من عقلاء قريش
وترسله فى سفـارتهـا الى الحبشة لتسمرد المهـا جرين
المسلمين فيرجع خائبا ذابه يفتح مصر و تصير له صولة عظيمة،
و هـذا سعدبن ابى و قاص لم نسمع به فى التاريخ العربى
قبل الاسلام كقـائـد جيش و رئيس كتيبة اذابه يتقلـد
مفاتيح المـدائن و ينيط بـاسمه فتح العراق و ايران.
و هذا سلمـان الفـارسى كان ابن مو بذان فى احدى
قرى فارس لم يزل ينتقل من رق الى رق و من قسوة الى قسوة
اذا به يطلع على أمته كحـاكم لعـاصمة الامبراطورية الفارسية
التى كان بالا مس أحـد رعاياها واعجب من ذلك أن

هذه الوظيفة لا تغير من زهادته و تقشفه فيراه الناس يسكن في كوخ و يحمل على رأسه الأثقال، و هذا بلال الحبشي يبلغ من فضله و صلاحه مبلغا يلقبه فيه أمير المومنين عمر بالسيد، و هذا سالم مولى ابي حذيفة يرى فيه عمر موضعا للخلافة يقول لو كان حيا لاستخلفته، و هذا زيد بن حارثة يقود جيش المسلمين الى مؤتة و فيه مثل جعفر بن ابي طالب و خالد بن الوليد، و يقود ابنه أسامة جيشا فيه مثل ابي بكر و عمر، و هذا أبو ذر و المقداد و أبو الدرداء و عمار بن ياسر و معاذ بن جبل و ابي بن كعب تهب عليهم نفحة من نفحات الاسلام فيصبحون من الزهاد المعدودين و العلماء الراسخين و هذا على بن ابي طالب وعائشة و عبد الله بن مسعود و زيد بن ثابت و عبد الله بن عباس قد اصبحوا في احضان النبي الامي صلى الله عليه و سلم من علماء العالم الذين يتفجر العلم من جوانبهم و تنطق الحكمة على لسانهم ابر الناس قلوبا و اعمقهم علما و أقلهم تكلفا يتكلمون فينصت الزمان و يخاطبون فيسجل قلم التاريخ -

ثم لا يلبث العالم المتمدن ان يرى من هذه المواد الخام المبعثرة التي استهانت بقيمتها الامم المعاصرة و سخرت

منهـا البلاد المجاورة، لايلبث ان يرى منهـا كتلة لم يشـاهد التاريخ البشرى احسن منها تزا نا كانها حلقة مفرغة لا يعرف طرفهـا اوكالمطر لا يدرى أ أوله خيرأم آخره، ككتلـة فيهـا الكفـاية التامة فى كل ناحية من نواحى الحيـاة الانسانية، كتلـة هى فى غنى عن العـالم و ليس العـالم فى غنى عنهـا و ضعت مـدنيتهـا و أ سست حكومتهـا و ليس لها عهد بهـا فلم تضطر الى أن تستعير جلا من أمـة أو تستعين فى إدار تهـا بحكومة. أسست حكو مة تمـدروانها على رقعة متسعة من قارتين عظيمتين و ملأت كل ثغر و سدت كل عوز برجل يجمع بين الكفاية و الديانة. والقوة والأمانة، تأسست هذه الحكومة المتشعبة الأطراف فانجدتها هذه الامة الوليدة التى لم يمض عليها الابعض العقود ـ كله جهاد و دفاع و مقاومة و كفاح ـ برجل من الرجال الاكفاء فكان منها الأمير العادل و الخازن الأمين و القاضى المقسط، والقـائد العـابـد. و الوالى المتورع، و الجـندى المتقى. و كانت بفضل التربيـة الـديـنيـة التى لاتزال مستمرة و بفضل الـد عوة الاسلا مية التى لاتزال سـائرة، مـادة لا تنقطع و معينـا لا ينضب، لا تزال تسند الحكومـة برجـال

## للمؤلف

١ ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟

٢ ـ الى ممثلى البلاد الاسلامية

٣ ـ المد و الجزر فى تاريخ الاسلام

٤ ـ خواطر و فصول

٥ ـ من نفحات القرن الأول

## تطلب

من مكتبة الاسلام، لكهنؤ (الهند)

# اعتذار

طبعت الرسالة فى مطبعة هندية لاعهد لها بالطباعة العربية فوقعت فيها اغلاط على تصحيح بعد تصحيح فالمرجو من القارى الكريم ان يتجشم تصحيحها۔

| الغلط | الصحيح | صفحه | سطر | الغلط | الصحيح | صفحه | سطر |
|---|---|---|---|---|---|---|---|
| معدسا | معكوسا | ١ | ٧ | منذده | منذرة | ٩ | ١٢ |
| لاثخان | الاثخان | ٢ | ٦ | موه | رموه | ١٠ | ٨ |
| محال | مجال | ٥ | ٣ | صجوا | اصبحوا | ١٥ | ١١ |
| لعربية | العربية | ٥ | ٧ | مخن | تحن | ٢٢ | ١٠ |
| [illegible] | بعرسان | ٥ | ١٦ | حده | حلا | ٣٣ | ٩ |
| علم | علم | ٦ | ١ | لآيتهما | لاتيتهما | ٣٤ | ١١ |
| الرحال | الرجال | ٦ | ٨ | اورسول | اولرسول | ٣٤ | ١٥ |
| محروه | مجزوة | ٨ | ١٣ | تزاما | انزاما | ٣٩ | ٢ |
| المحية | المحبية | ٨ | ١٥ | | | | |

# معقل الإنسانية

رسالة

الى ابناء البلاد العربية خاصة

بقلم

ابي الحسن علي الحسني

تطلب من

مكتبة الاسلام لكناو

الهند